

مضامين الرثاء الحسيني في العصر الأموي

رقية رستم پور ملكى - عضو هيأت علمى

النضرة التي يمتاز الشيعة همسا عن سواء، وهما اكسباء هذه الصبغة النابضة بالحياة و المشرقة بالروعة و جمال البيان^١.

لقد أثارَت هذه الفاجعة الجليلة، الأشجان والأسى، حيث أدت ألى ازدهار الرثاء، في ذلك العصر و العصور التي تلتها، واستمر إلى يومنا هذا.

و التصوير الذي أعطته الرثائيات، خاصة رثاء الحسين عليه السلام عن العصر الأموي و حادثة الطف، جعل المأساة خالدة مسجلة في الأذهان و كأن التاريخ لم يتحرك و بقي ساكناً في تلك الحقبة من الزمن.

ساهم في رثاء الحسين عليه السلام و تصوير مصائبه و بقدر أوفر أسرة الحسين عليه السلام و أهل بيته الذين أسروا و اضطهدوا بعد أن شاهدوا مصرع

الطف، و التي سببت شهادة سيد شباب أهل الجنة و كثير من أهله و اصحابه إثر ثورة دامية تهدف إلى احياء مبادئ الاسلام و الدفاع عنها.

كانت واقعة الطف، من بين الفجائع التاريخية، أشد وقعاً و أهدأ أثرأ في النفوس، و لعل ذلك يرجع إلى سببين:

الأول: إلى طبيعة الواقعة، و لما اشتملت عليه من الفظائع المنكرة في جميع نواحيها التي ارتكبت خلالها، و التي يندى لها التاريخ، لا سيما عند ما لاحظنا خصائص الواقعة الشخصية و العامة و الزمنية و الوضعية التي تحيط بها.

الثاني: إلى تجديد ذكرى يوم الطف في جميع بقاع العالم الشيعى، فإن تجديد هذه الذكرى في كل يوم، تحيي في النفوس العاطفة من جديد، و تلهب فيها ما كان خامداً و تعيد فيها الذكريات الدفينية، و هذان السببان لها التأثير الكامل في اعطاء هذا النوع من الأدب، الألوان الحية

إن من يطالع الرثاء الحسيني خلال العصر الأموي، يجد فيه مضامين تنبئ عن أحداث عظيمة و خطب جليل، و مشاعر فاضت بالصدق، و لوعة تبين مدى تأثر الشعراء الموالين لأهل البيت عليهم السلام. بحادثة الطف و ماجرى للحسين عليه السلام و أسرته؛ فجاءت هذه المضامين واضحة مفعمة بالصور، تحكي عن جميع الوقائع و ماعاناه الامام عليه السلام و أهله و أصحابه. و من أراد تصويراً كاملاً عن مأساة كربلاء و نتائجها، فليقرأ نظم في رثاء ما الحسين عليه السلام، فإنها تستغنيه عن مطالعة الكتب التاريخية و المقاتل. هذا ولم يدع الشعراء موضوعاً و لاحداثاً إلا أشاروا إليه في مرثيهم.

في العاشر من محرم سنة ٦١هـ حدثت اعظم مأساة في التاريخ الاسلامي في وادي

(١) الأدب في ظل التشيع / عبدالله نعمة.

و السبب في تفصيل الثورة هنا، بيان معلومات عن ندم الشيعة و قيامهم بزعامة سليمان بن صرد و أثر خطب الزعماء في إثارة النفوس و مشاركة الشعراء في الثورة هذه بانشادهم رثائيات في الحسين عليه السلام و تحريض الناس.

ساهم الشعراء في الثورة، و كان لأشعارهم في هذا المجال أثر عظيم في تحريض الناس على طلب الثأر. ثم أن هؤلاء صوّروا لنا روح الندم و الإنابة في الناس و في أنفسهم بعد أن تركوا نصرة الحسين عليه السلام. و اعتبروا مراثيمهم هذه وسيلة شفاعتهم يوم القيامة و خلاصهم في الآخرة.

و فيما يلي نذكر المرثي التي نظمت في الحسين عليه السلام و التي تحكي عن روح الندم و التوبة مصورة حركة التوابين و قيامهم بطلب ثأر الشهداء:

يرثي عوف بن عبدالله^١
الحسين عليه السلام و يظهر ندامته على عدم

ذلك العصر و تظهر بعد انقضاء حكم بني أمية.

روح الندم و التحريض للثورة
كان أول رد فعل مباشر لقتل الحسين عليه السلام هو حركة التوابين في الكوفة. فلما قتل الحسين عليه السلام و رجع ابن زياد من معسكره بالنخيلة فدخل الكوفة، تلاقى الشيعة بالتلازم و الندم. و رأت أنها قد أخطأت خطأ كبيراً بدعوتهم الحسين إلى النصرة و تركهم اجابته، حيث استشهد إلى جانبهم و لم ينصروه. و رأوا أنه لا يغسل عارهم و الأثم عنهم إلا بقتل من قتله، ففرغوا بالكوفة إلى خمسة من رؤوس الشيعة، إلى سليمان بن صرد الخزاعي، و كانت له صحبة مع النبي صلى الله عليه وآله، و إلى المسيب بن نجبة الفزاري، و كان من أصحاب علي عليه السلام و إلى عبدالله بن سعد بن نفييل الأزدي و عبدالله بن وائل التيمي ثم بدأ كل من الزعماء بالتكلم، و ألقوا خطاباً قيمة، كان مضمون كلامهم الندم على عدم مناصرتهم الحسين، و التوبة و الإنابة إلى الله، و الانتقام و أخذ ثأر الشهداء.

كان أول ما ابتدأوا به أمرهم بعد مقتل الحسين عليه السلام السنة ٤١ هـ فما زالوا يجمع آلة الحرب و دعوة الناس في السر، حتى مات يزيد، فخرجوا يشتررون السلاح ظاهرين، و يجاهرون بجهازهم، حتى إذا كانت ليلة الجمعة لحمس مضي من ربيع الآخر سنة ٤١ هـ توجهوا إلى قبر الحسين صاحبوا صيحة واحدة، فما رأى يوم أكثر باكياً منه، فغادروا القبر مستقلين و قاتلوا جيوش الأمويين حتى أبيدوا جميعاً.^٢

شهدانهم، علاوة على الشعراء البارزين في ذلك العصر.

وللذين تركوا مناصرة الامام الحسين عليه السلام ثم ندموا على ذلك، أثر عظيم في تسجيل الحادثة و الثورات المتتابة بعدها و التحريض على أخذ ثأره و التوبة و الإنابة إلى الله.

تصدر الإشارة، أن ماقيل في الحسين عليه السلام من الرثائيات كثير جداً كما يذهب معظم المؤرخون، أعني منها ما نظمت في العصر الأموي، إلا أن أكثرها ضاعت.

و يقول في ذلك ابوالفرج الأصبهاني، و قد رثي الحسين بن علي عليه السلام جماعة من متأخري الشعراء، أستغني عن ذكرهم في هذا الموضوع كراهية الإطالة؛ و أما من تقدم، فما وقع إلينا شيء رثي به، و كانت الشعراء لا تقدم على ذلك مخافة بني أمية و خشية منهم.^١

و الباحث عن أشعار الرثاء في العصر الأموي خاصة في الحسين عليه السلام، يلاحظ قسماً كبيراً منها قد نسبت إلى الجن أو الهواتف الغيبية، و يجد مصادر قديمة قد أفرد لها مصنفوها باباً خاصاً لنياحة الجن في الحسين عليه السلام. و ذكروا أبياتاً متفرقة و نسبوها إلى الجن. و قلدهم الكتاب المعاصرون من بعدهم.

و لا يتعد أن تكون هذه الأبيات قد نظمت من قبل شعراء الشيعة و محبي آل البيت عليه السلام؛ لكنهم لم يقدروا من مجاهرة أشعارهم بسبب الخوف من الطرد و التشريد على يد حكام بني أمية، فنلاحظ إثر ذلك، الخوف و الاختناق المسيطر - أشعاراً كثيرة لم يعرف قائلها أو تتخبأ في

(١) مقاتل الطالبين / ابوالفرج الأصبهاني، شرح و تحقيق احمد صقر، دارالمعرفة، بيروت، ص ١٢٢

(٢) تاريخ الأمم و الملوك / الطبري، مطبعة الاستقامة بالقاهرة، ١٣٥٨ هـ، ج ٤، ص ٤٧٣-٤٢٤
(٣) هو عوف بن عبدالله الأزدي، شهد مع علي عليه السلام صفيين و له قصيدة طويلة رثي بها الحسين و حرّض الشيعة، على الطلب بدمه، و كانت تتخبأ أيام بني أمية، معجم الشعراء / المرزباني، تحقيق عبدالستار أحمد فراج، داراحياء الكتب العربية، بيروت ط ١٣٧٩ هـ ص ١٢٤ و أعيان الشيعة ج ١، ص ١٤٨ و عبدالله بن عوف الأحمر

نصرته:

وأضحى حسين للرماح دريئة
فعودر مسلوباً على الطف ثاويًا
قتيلاً كأن لم يعرف الناس أصله
جزى الله قوماً قاتلوه الخاويًا
فياليتني إذ ذاك كنت لحقته

وضاربت عنه الفاسقين الأعاديًا
ودافعت عنه ما استطعت مجاهدًا
واعملت سبي فيهم وسانيا
ولكن عذري واضح غير مختف
وكان قعودي ضلة من ضلاليًا
وياليتني غودرت فيمن اجابه

وكننت له في موضع القتل عاديًا
وياليتني جاهدت عنه بأسرتي
واهلي وخالتي جميعاً وماليًا^١
يصف الشاعر كيفية قتل
الحسين عليه السلام في وادي الطّف، ثم يدعو
على قاتليه، سائلًا عن شرف نسبه
باسلوب الاستهزام الإنكاري، فينتقل إلى
إظهار الندم والتأسف، ويذكره بأسلوب
قوي، وبيان محكم، معتذراً على قعوده عن
القتال، ثم يرجع بعد هذا الاعتذار
المتواضع إلى الأسف والتحصّر على ما
فعله ويرزه عن صميم قلبه.

تجدر الإشارة أن هذه القصيدة كانت
من المكتومات في العصر الأموي، ومثل
هذا ليس عجيبيًا بسبب ما تتخلله القصيدة
من التحريض على الثورة والقيام ضد بني
أمية، والظروف السائدة من الإرهاب و
الضغط على الشيعة لا تسمح بإظهار مثل
هذه الأقوال آنذاك، وكانت تمنع من
انتشارها.

وما نلاحظه من مظاهر الرثاء، أنه
ندب حزين، تخالطه روح التضحية و

صدق العاطفة.

ومن ندم على عدم مناصرة الحسين
هو عبيدالله بن الحر^٢، الذي أبقى دعوة
الحسين، ثم هرب مخافة أن يواجهه
عبيدالله بن زياد، ثم رجع الكوفة بعد
استشهاد الحسين عليه السلام. فقال له
عبيدالله بن زياد - وكان قد تفقد أهل
الكوفة - أكنت معنا أم مع عدونا؟ قال: لا والله
ما كنت مع عدوك ولو كنت معه لبلغك
ذلك ولكنني كنت مريضاً، فخرج من عند
ابن زياد مغضباً فأتى المدائن وهو يرثي
الحسين عليه السلام:

يقول أمير غادر وابن غادر
ألا كنت قاتلت الشهيد ابن فاطمة
ونفسي على خذلانه واعتزاله
وبيعة هذا الناكث المهدي سادمة
فيا ندمي ألا أكون نصرته
ألا كل نفس لا تسدو نادمه^٣
يبدأ الشاعر مرتيته بهجاء عبيدالله و
أبيه وبنو أمية، حيث يصفهم بالغادر و
الظالم ويستغرب من سؤال الأمير.

تجلّت في الأبيات روح الندم والنقمة و
الحسرة واضحة. وله أيضاً في أبراز ندمه:

أيا لك حسرة مادمت حياً
تردد بين صدري والتراقي
غداة يقول لي بالفصر قولاً
أتركنا وتعزم بالفراق
حسين حين يطلب بذي نصري

على أهل العداوة والشقاق^٤
يخاطب الشاعر نفسه متحسراً بأنه
ستبقى هذه الحسرة طيلة حياته لعدم
استجابته دعوة الحسين عليه السلام، خاصة و
في البيت الثاني، يشير إلى زيارته
الحسين عليه السلام قبيل الحركة نحو الكوفة، و

أنه دعاه للنصرة ولم يجبه، فيعبر عن مدى
ندامته وحزنه وتلهفه.

ويتحسر على ما فاتته من نيل الكرامة
والتواب يوم القيامة وشفاعة الحسين، و
يعتبر نصرة الحسين فوزاً عظيماً وأن
ناصريه هم الفائزون وأن القاعدين عن
هذه النصرة هم المنافقون.

وفي التحريض على أخذ الثأر يقول
أبو الأسود الدؤلي:

يا ناعي الدين الذي ينعي التقي
قم وانعه والبيت ذو الأستار
أبني علي آل بيت محمد
بالطف تقتلهم جفاة نزار
سبحان ذا العرش العليّ مكانه
أنتي يكابره ذوو الأوزار
بني قشير إنني ادعوكم
للحق قبل ضلالة وخسار
كونوا لهم جفنا وذودوا عنهم
اشياع كل منافق جبّار

(١) معجم الشعراء/ المرزباني، ص ١٢٦

(٢) عبيدالله بن الحر بن عمر والجعفي من بني
سعد القشيرة قائد من الشجعان الأبطال كان من
خيار قومه شرفاً وفصلاً، لما كانت فاجعة
الحسين تغيب ولم يشهد الواقعة ثم تدم
توفي ٦٨هـ/ اعلام/ الزركلي، ج ٤، ص ١٩٢

(٣) انساب الأشراف/ البلاذري، ج ٥، ص ٢٩١.
الطبقات الكبرى/ ابن سعد، ج ٨، ص ٧٢. تذكرة
الخواص/ ابن الجوزي، ص ٢٧٥

(٤) مقتل الحسين الخوارزمي، ج ١، ص ٢٢٨.
الفتوح/ ابن اعثم الكوفي/ داراحياء التراث العربي
، لات، ج ٥، ص ١٣٣ وفي الطبقات الكبرى/ ابن
سعد، ج ٨، ص ٧٣. بدل «صدري» حلقي وبدل

التشبيه والاستعارة، وتجدد هذه الصور البلاغية قوة الشاعر الفنية في ترسيم الصور والاحداث.

هجاء بني أمية وذم أهل الكوفة
إن المرثي التي صدرت من أسرة الحسين عليه السلام، وأسرى حادثة الطف، تتضمن معظمها هجاء بني أمية، وتقبیح جرائمهم، وعدم تأسيهم بوصايا الرسول صلى الله عليه وآله في مودة أهل بيته، ومسألة وجوب النار على قتلة الحسين، وعدم شفاعة الرسول صلى الله عليه وآله عليهم يوم القيامة:

ماذا تقولون إذ قال النبي لكم
ماذا صنعتم وأنتم آخر الأمم
بعترتي وبأهلي بعد مفتقدي
منهم أسارى ومنهم ضرجوا بدم
ما كان هذا جزائي إذ نصحت لكم
أن تخلفوني بسوء في ذوي رحم
إني لأخشى عليكم أن يحلّ بكم
مثل العذاب الذي أودى على إرم^٣

(١) ديوان أبي الأسود الادوني / تحقيق عبدالكريم الدجيلي، ص ١٨١
(٢) معجم الشعراء، ص ١٢٦ وانظر اختلاف الروايات فيها: زفرات الثقلين / محمد باقر المحمودي مجمع احياء الثقافة الاسلامية، قم، ط ١، صص ١١٨ و ١١٧
(٣) اختلف الرواة في نسبة هذه الأبيات في الاحتجاج / الطبرسي، مؤسسة الاعلمي، بيروت ط ٢، ج ٢، ص ٣٥٥ لزینب أخت الحسين، وفي مقتل الحسين / الخوارزمي، ج ٢، ص ٧٢ لزینب بنت عقيل وأيضاً في تذكرة الخواص، ص ٢٦٧ و مروج الذهب / المسعودي، ج ٢، ص ٩٤ لبنت عقيل وقيل أنها لأم لقمان بنت عقيل

وابكوا حسيناً كلما ذرّ شارق
وعند غسوق الليل يكوا أمامياً^١
يدعو الشاعر اصحابه للقيام وتلبية دعوة المنادي ويعبر بهذا عن أسفه الشديد لعدم نصرته ويلمح في البيت الثاني الى قيام التوابين وثورتهم بزعامة سليمان بن صرد. ويعتبر هذه الاجابة وسيلة نيل الفوز والفلاح ثم يحرضهم إلى قتل اعداء الحسين بالسيوف القاطعة.
ينتقل بعد ذلك إلى رثاء المرثي بتأيينه وتعداد فضائله، ضمن دعوته الى البكاء وتذرف الدموع. ومثل هذا الاسلوب أي استهلال القصائد الرثائية بالندم والتوبة، كان من ميزات رثاء الحسين عليه السلام.

فيا أمة صلّت عن الحق والهدى
أنبيوا فإن الله في الحكم عالياً
وتوبوا إلى التواب من سوء فعلكم
وإن لم تتوبوا تدرکوا الخازيا
وكونوا ضراباً بالسيوف وبالقنا
تفوزوا كما فاز الذي كان ساعياً
وإخواننا كانوا إذا الليل جنّهم
تلوا طوله القرآن ثم المثنايا
أصاهم أهل الشقاوة والغوى
فحتى متى لا يبعث الجيش عادياً
عليهم سلام الله ما هبّت الصبا
وما لاح نجم أو تحدرّ هاويا
وفي الابيات بيان عن إنابة الشعاعرو اصحابه، و طلب الشفاعة و الفوز. يمدح هؤلاء التوابين الذين كانوا يتلون القرآن طول الليل، و يلمح بهذا الى دعوتهم سرّاً. فيدعو الشاعر لمجاهرة هذه الحركة و الحرب علناً.
وفي النهاية يسلم على الشهداء بأسلوب فني، مستعيناً بصورة بديعة من

وتقدّموا في سهمكم من هاشم
خير البرية في كتاب الباري
بهم اهتديتم فاكفروا إن شئتموا
وهو الخيار وهم بنو الأخيار^١
يستهل الشاعر الرثاء بالدعوة للبكاء والعيول، ثم يدعو قبيلته إلى أخذ ثأر الشهداء، والانتقام بلغة قويّة تحكي عن عاطفة شائرة تستثيرهم للقيام. وتسا مخاطب الشاعر الناعي و يدعو للبكاء و يطمئنه بأن البيت ذوالأستار، يشير إلى الخوف السائد في العصر الأموي وأنهم لا يتمكنون من المجاهرة بشاعرهم وإقامة الغزاء على الشعراء.

اتضح مما سبق، أن الأبيات الرثائية تبين مدى انعكاس معركة الطف في الشخصيات المعاصرة آنذاك، وقيامهم ندمهم على عدم المساهمة في القتال. هذه الأبيات من قصيدة لعوف بن عبدالله الأزدي يرثي بها الحسين و يدعو إلى القيام:

صحوت وودعت الصبا والغوانيا
وقلت لأصحابي أجيوا المناديا
وقولوا له إذ قام يدعو إلى الهدى
وقتل العدا لبيك لبيك داعياً
وقوموا له إذ شد للحرب أزره
فكل امرئ يجزي بما كان ساعياً
وقودوا إلى الاعداء كل مضرّ
لحوق وقودوا السامجات النواجيا
وسيروا إلى الاعداء بالبيض والقنا
وهزوا جراباً نوحهم والعواليا
وابكوا لخير الخلق جدّاً والدا
حسين لأهل الأرض مازال هادياً
وابكوا حسينا معدن الجود والتقى
وكان لتضعيف المثوبة راجيا

كتابة أهل الكوفة إلى الامام و دعوته الى الكوفة، و تركهم في ابيات حزينة تبين لوعته.

و قال علي بن الحسين عليه السلام في أهل الكوفة ضمن رثاء أبيه عليه السلام:

لا غرو أن قتل الحسين و شيخه
قد كان خيراً من حسين و اكرما
فلا تفرحوا يا أهل كوفة بالذي
أصيب حسين كان ذلك أعظما
قتيل بشط النهر نفسي فداؤه
جزاء الذي ارداه نار جهنماً^١
و قد احتج الامام على أهل الكوفة، و هو يؤخهم على غدرهم و نكتهم العهد.
و استعمال كلمة شط النهر رمزاً لعطش الحسين و هو على شاطئ الفرات، يضيف للثناء لوعة و ألماً و حرقة.

(١) جعفر بن عفان الطائي، كان من شعراء الكوفة مكفوراً و له أشعار كثيرة في معان مختلفة. اخبار شعراء الشيعة/ المرزباني، تلخيص محسن الأمين العامل، المطبعة الحيدرية، النجف ط ١، ص ١١٥

(٢) مقتل الحسين / الخوارزمي، ج ٢، ص ١٤٥
(٣) الأمالي / الشيخ المفيد، تحقيق علي اكبر الغفاري، مؤسسة النشر الاسلامي، قم، ص ٣١٩
(٤) عبيدة بن عمرو الكندي أحد بني بني ابن الحارث و قيل عبيدالله بن عمر و الكندي كان فارساً شجاعاً كوفياً شيعياً شهد مع علي مشاهده كلها و كان يأخذ البيعة من أهل الكوفة للحسين عليه السلام - تنقيح المقال، ج ٢، ص ٢٤١
(٥) الاحتجاج / الطبرسي، ج ٢، ص ٣٥٦
(٦) المنتخب في جمع المراني و الخطب / الطبرخي، ص ٢٧٧ و نفس المهموم / الشيخ عباس القمي، مكتبة بصيرتي، قم، ص ٤٥٥

يوم الحساب و صدق القول مسموع
خذلتم عترتي او كنتم غيباً
و الحق عند ولي الأمر مجموع
اسلمتموهم بأيدي الظالمين فما
منكم له اليوم عند الله مشفوع
ما كان عند غداة الطف إذ نصروا
تلك المنايا و لا عنهن مدفوع^٢
هكذا تخاطب ابنة عقيل قاتلي
الحسين عليه السلام، و هي تواجههم مع
الرسول يوم القيامة، حيث يسأل عنهم
معاملتهم مع عترته و ذريته.

هذه الصياغة التساؤلية و قوة
الاسلوب، تجعل الأبيات اكثر وقعاً في
النفوس، الرثاء مزوج بالهجاء و تجلت في
البيت الأخير روح الغزاء.
ورد ذكر أهل الكوفة الذين كاتبوا
الامام عليه السلام، ثم لم ينصروه، في مرآتي
الحسين عليه السلام، و بدأ الشعراء بدم أفعال
هؤلاء و هجائهم ضمن البكاء و التلهف
على الحسين عليه السلام و غربته. يقول عبيدة
بن عمرو الكندي^٤ رثياً للامام عليه السلام:

صحا القلب بعد الشيب عن أم عامر
و أذهله عنها صروف الدوائر
و مقتل خير الآدميين والدا
وجداً إذا عدت مساعي المعاصر
دعاة الرجال الحائرون لنصره
فكلاً رأيتاه له غير ناصر
وجدانهم من بين ناكث بيعة
و ساع به عند الإمبر و غادر
و رام له لما رءاه و طاعن

و مسل عليه المصلتين و ناخر^٥
يبث الشاعر شكواه عن الدهر و كثرة
مصائبه معبراً عنها بمقتل الحسين عليه السلام،
ثم يؤنبه بذكر شرف نسبه، فيذكر مسألة

تتميز الأبيات بالقوة في البيان و الاحكام في العبارة، و الرثاء حزين مفعم بالهجاء، و استطاع الشاعر أن يصور مصائب آل محمد عليهم السلام بعد فقدان النبي صلى الله عليه وآله ضمن هجاء بني أمية.

يساهم الشاعر جعفر بن عفان^١ في هذا النوع من الرثاء الممزوج بالهجاء.
يا أمة السوء هاتوا ما حجاجكم
إذا برزتم لجبار السموات
و أحمد خصمكم و الله منصفه
إن قال في جمعكم دون المحابة
أم أبين لكم ما فيه رشدكم
من الحلال و من ترك الخطيئات
فاصنعتم أضل الله سعيكم
فيما عهدت اليكم من وصياتي
أما بني ففتول و مكنتيل

و هارب في رؤوس المشمخرات
و قد أخذتم بناقي بين أظهركم
ماذا أردتم شقيتم من بنيات
ينقلن من عند جبار يؤنبها
لآخر مثله نقل السبيات^٢

نلاحظ أن هذه الابيات كما سبقت
نمذج منها، تهدد بني أمية و قتلة
الحسين عليه السلام، ثم ينتقل الشاعر يتكلم
بصيغة المتكلم عن لسان النبي صلى الله عليه وآله و يدعو عليهم.

و إن الاحتجاج و عاطفة الغضب من أبرز سمات هذه الأبيات.

لما أتى نعي الحسين عليه السلام إلى المدينة، خرجت أسماء بنت عقيل بن أبي طالب في جماعة من نساها حتى انتهت إلى قبر الرسول صلى الله عليه وآله، فلذت به، و شهقت عنده ثم التفتت إلى المهاجر و الانصار قائلة:
ماذا تقولون إن قال النبي لكم

والأبيات التالية لعلي بن
الحسين عليه السلام في رثاء أبيه وأصحابه:
يا أمة السوء لا سقياً لربعمكم
يا أمة لم تراع جدنا فينا
لو أننا ورسول الله يجمعنا
يوم القيامة ما كنتم تقولونا
تسيرونا على الأقتاب عارية
كأننا لم نشيد فيكم ديناً
بني أمية ما هذا الوقوف على
تلك المصائب لم تصغوا لداعينا
أليس جدي رسول الله وبلكم
أهدى البرية من سبل المضلينا
تصفقون علينا كفكم فرحاً
وأنتم في فجاج الأرض تسبوننا
يا وقعة الطف قد أورتني حزناً
والله يهتك أستار المسيئين^١
يستهل الامام مرثيته بالدعاء على بني
أمية، ويصور لنا مصائب أهل بيت
الحسين عليهم السلام وأسره، ثم يحتج على
بني أمية ويذكر قرابته من النبي صلى الله عليه وآله، و
سرور قتلة الحسين من فعلتهم الشنيعة.
وفي البيت الأخير يخاطب وقعة الطف
وأنها ستبقى رمزاً للحزن والألم، ويسلي
نفسه بأن الله سوف يعذبهم ويتقمم منهم.
وتسري أم كلثوم^٢ أخت
الحسين عليه السلام أخاها:

قتلت أخى صبراً فويل لأمكم
ستجزون ناراً حرّها يتوقد
سفكم دماءاً حرّم الله سفكها
وحرّمها القرآن ثم محمّد
ألا فابشروا بالنار أنكم غدا
لني سقرحفاً يقيناً محمّد
وإني لأبكي في حياتي على أخي
على خير من بعد النبي مولد

بدمع غزير مستهل مكفكف
على الحدّمني دائماً لا يحمّد
فهى تدم قتلة الحسين، وتذكر أن
جزاءهم حرّ النار لما ارتكبوا من الفعل
الحرام. والأبيات تتسم بالتهديد والوعيد،
وتتجلى فيها روح اللوعة والبكاء. وإذا ما
لاحظنا القرابة بين الراي والمرثي،
لانكشف لنا مظاهر الرثاء العاطفي. وهذه
الأبيات تمّ نظمت سكينه
بنت الحسين عليها السلام^٣ في رثاء أبيها:
لا تعذليه فهمّ قاطع طرقه
فيعينه بدموع ذرف غدقه
إنّ الحسين غداة الطف يرشفه
ريب المنون فما أن يحطى الحدقة
بكفّ شرّ عباد الله كلهم
نسل البغايا وجيش المرق الفسقة
يا أمة السوء هاتوا ما احتجاجكم
غداً وجلّكم بالسيف قد صفقه
الويل حلّ بكم إلا بمن لحقه
صيرتومة لأرماح العدى درقه
يا عين فاحتفلي طول الحياة دماً
لاتبك ولداً ولا أهلاً ولا رفقه
لكنّ على ابن رسول الله فانسكي
قيحاً ودماً وفي أثرهما العلقه^٤
تخاطب وبكاء حزين، تصف سكينه
تذرف دموع الباكي على الحسين، فتعلله
بعظمة الرزية، وأن لمثل الحسين فليبك
الباكون ولتذرف العيون دماً. ثم تهجو قتلة
أبيها وجيش الأعداء وتعبر عنهم بشرّ
الناس.
الرثاء عاطفي حزين انبعث، عن قلب
متألم.
قال خالد بن المهاجر يرثي^٥ شهداء
الطف مخاطباً بني أمية:

أبني أمية هل علمتم أنني
أحصيت ما بالطف من قبر
صّب إلاله عليكم غضباً
ابناء جيش الفتح أو بدر^٦
اتسمت الأبيات بطابع الهجاء والدعاء
على بني أمية، ولا تشاهد معالم الرثاء فيها
واضحة إلا في الشطر الثاني حينما يحصي
عدد شهداء الطف فتعظم الحدث. ونشاهد
ذم جرائم بني أمية أيضاً في المرثية التالية:
أترجو أمة قتلت حسينا
شفاعة جدّه يوم الحساب
فلا والله ليس لهم شفيع
وهم يوم القيامة في العذاب
فقد قدموا عليه بحكم جور
مخالف حكمهم حكم الكتاب

(١) الاحتجاج، ج ٢، ص ٢٩

(٢) هذه كنية زينب الصغرى وقد كانت مع أخيها
الحسين عليه السلام بركبلا، ومع السجاد إلى الشام
ثم إلى المدينة وهي جلييلة القدر وفهيمة بليغة و
لها مرثيات وخطب كثيرة، انظر: تنقيح المقال و
المماقني، ج ٣، ص ٧٣

(٣) سكينه بنت الحسين عليها السلام أمها الرباب
بنت امرئ القيس، يحبها الحسين عليه السلام حباً
شديداً/كانت شاعرة ذات بيان وفصاحة وسيدة
نساء عصرها، توفيت ١١٧ هـ

(٤) ادب الطف / جواد شير، ج ١، ص ١٥٨، نقلاً
عن الأمالي / الزجاج، ط بيروت، ص ١١١

(٥) هو خالد بن المهاجر بن الوليد بن المغيرة بن
عبدالله بن عمر و بن مخزوم القرشي قتل مع
عبدالله بن الزبير بمكة سنة ٧٢ هـ تهذيب التاريخ

الكبير / ابن عساکر، ج ٥، ص ٩١

(٦) نفس المصدر، و أنظر: زفرات الثقلين /

الوضع المخوف من جهة، و تعظيم المصيبة، و أحياناً بسبب المغالاة في سرد الأحداث من جانب الرواة من جهة أخرى. على أي حال، فإن الأبيات يلاحظ فيها تسجيل و تصوير واضح من حادثة الطف، و ما عاناه الحسين و أهل بيته من العطش. تجلت في الأبيات عاطفة حزينة و رقيقة صدرت عن قلب دام في مصيبة الاب.

و هذا بشير بن جذلم ينعي لأهل يثرب قتل الحسين ﴿عَلَيْهِ السَّلَام﴾:

يا أهل يثرب لا مقام لكم بها
قتل الحسين فأدمعي مدار
الجسم منه بكر بلاء مضرّج
و الرأس منه على الفناة يدار
يا أهل يثرب شيخكم و إمامكم
ما منكم أحد عليه يغار^٧

يقول: ... إني لا أعلم أصحاباً أوفى من أصحابي، و لأهل بيت أبرّ و لأوصل من أهل بيتي، فجزاكم الله عني خيراً... و البيت الثالث و ما يليه، يشيران إلى أجوبة أهل بيته و أصحابه، حيث قالوا: لم نفعل هذا ... لا أرانا الله ذلك أبداً.^٤ و للكهيت بن زيد الاسدي قصيدة في أهل البيت ﴿عَلَيْهِمُ السَّلَام﴾:

و قتل بالطف غودر منه
بين غوغاء أمة و طعام
تركب الطير كالمجاسد فيه
مع هاب من التراب هيام
و تطيل المرزآت المقاتلت
عليه القعود بعد القيام
يتعرفن حرّ وجه عليه
عقبة السرو ظاهراً و الوسام
قتل الاديعاء إذ قتلوه

أكرم الشارين صوب الغمام^٥
جاءت سكيينة فاعتنقت أباهها، و جعلت تمسح وجهها على جسده و هي تبكي حتى غشي عليها، ثم جاء اعداء الله فجدبوها منه و أبعدها عنه. قالت سكيينة: سمعت أبي يقول و أنا مغشي علي:

شيعتي ما إن شربتم عذب ماء فاذكروني
أو سمعتم بقتيل أو شهيد فاندبوني
فأنا السبط الذي من غير جرم قتلوني
و مجرد الخيل بعد القتل عمد أسحقوني
ليتك في يوم عاشورا جميعاً تنظروني
كيف أستسقي لطفلي فأبوان يرحموني
و سقوه سهم بغي عوض الماء المعين^٦

أظنّ أنّ الأبيات من نظم سكيينة بنت الحسين، و هذا لا يستبعد، لأنها كانت شاعرة في عصرها، و شهدت الحادثة بنفسها، إلا أنّ الرواية جاءت هكذا بسبب

ستلقى يا يزيد غدا عذابا
من الرحمن يالك من عذاب^١
جاءت هذه الأبيات في معظم المصادر، أنها كانت مكتوبة في الحائط داخل كنيسة الروم، و لما سئل عن زمن كتابتها فقالوا: من قبل أن يبعث صاحبكم بثلاثمائة عام. أو ذكروا أنه خرج قلم من حديد من حائط أمام قتلة الحسين و في مجلسهم فكتب بالدم.^٢
أعتقد أنّ مثل هذه الأقوال لا تصدّق، و قد ذكرت من جانب المؤرخين لبيان عظمة المأساة و الحادثة، فنحن نخذ أمثال تلك الأقوال في الاداب المختلفة تقال عند استعظام شخصية المعني و أعماله، أو ربما يرجع ذلك إلى عدم مجاهرة بعض الشعراء بأبياتهم مخافة الحكام في العصر الأموي. و لقد رويت هكذا لتصوير الحادثة من جانب، و حفظاً للأبيات و سترأ لقائلها من جانب آخر.

تسجيل حادثة الطفّ

قال السيّد الحميري يرثي الحسين ﴿عَلَيْهِ السَّلَام﴾ و بصوّر ما حدث في واقعة الطف:

لست أنساه حين أيقن بالموت
دعاهم و قام فيهم خطيبا
ثم قال ارجعوا إلى أهلكم لي
س سواي أرى لهم مطلوبا
فأجابوه و العيون سكوب
و حشاهم قد شبّ منها لهيبا
أي عذر لنا غداً حين نلقى

جذك المصطفى و نحن حروبا^٣
صوّر الشاعر ماجرى بين الامام ﴿عَلَيْهِ السَّلَام﴾ و أصحابه ليلة عاشوراء و اجتماعهم و قيام الإمام فيهم خطيباً. و هو

(١) كامل الزيارات / ابن قولويه، المطبعة المرتضوية، النجف، ١٣٥٦ هـ و انظر المناقب / ابن شهر آشوب، ج ٤، ص ٦١ و مقتل الحسين / الخوارزمي، ج ٢، ص ٩٣

(٢) انظر نفس المصادر

(٣) ديوان السيد الحميري، ص ٧٣

(٤) مشير الأحزان / الشيخ شريف الجواهري، مطبعة الاعلمي طهران، لات ج ١، ص ٩٣

(٥) الفصائد الهاشميات / الكهيت، ص ٢٥

(٦) مشير الأحزان / الشيخ شريف الجواهري، مطبعة الاعلمي طهران، لات ج ١، ص ٩٣

(٧) بشير بن جذلم كان من أصحاب علي بن الحسين. رافقه و أهل بيته حين توجهوا من العراق الى المدينة؛ و أرسله ﴿عَلَيْهِ السَّلَام﴾ إلى المدينة ليعنى أبا عبدالله في مسجد النبي ﴿صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ﴾ فرجع صوته بالبكاء ... و اللهوف على قتلى الطفوف / ابن طاوس، ص ١٧٦

لما صلب رأس الحسين عليه السلام بالشام،
أخفى خالد بن معدان شخصه عن أصحابه،
فطلبوه شهراً حتى وجدوه فسألوه عن
عزله فقال: أما ترون ما نزل بنا؟ ثم أنشأ
يقول:

جاؤوا برأسك يا بن بنت محمد
مترملاً بدمائه ترميلاً
و كأنما بك يا ابن بنت محمد

قتلوا جهاراً عامدين جهاراً
قتلوك عطشاناً ولم يترقبوا
في قتلك التنزيل والتأويل
ويكبرون بأن قتلنا وإنما
قتلوا بك التكبير والتهليلة^١

تصوير مصائب أهل بيت
الحسين عليه السلام

جاء وصف مصائب آل محمد وأهل
بيت الحسين عليه السلام في مرثيته بصورة
واضحة. هذه أم كلثوم ترثي أخاها:
هو الزمان فلا تغني عباثه

من الكرام وما تهدي مصائبه
فليت شعري إلى كم ذا تجاذبنا
فنونه وترانا لم نجاذبه
سيروا بنا فوق أفتاب بلاوطاً
وسابق العيس يحمي عند غاربه
كأننا من أسارى الروم بينهم
كأن ما قاله المختار كاذبه

كفرتم برسول الله وبمحكم
فكنتم مثل من ضلّت مذاهبه^٢
تتضمّن المرثية الشكوى من الزمان، و
بيان مصائب الدهر التي لا تزال تصيب
الكرام، ثم تقارن حال آل محمد عليه السلام
مع بني أمية.

ترثي أم كلثوم أخاها في قصيدة طويلة

و تصوّر محنة أهل بيته وفتك بني أمية بهم،
مدينة جدنا لا تقبلينا

فبالحسرات والأحزان جننا
ألا فاخبر رسول الله عنّا
بأننا قد فجعنا في أيّنا

و أن رجالنا بالطّف صرعى
بلا رؤس و قد ذبحوا البنينا
و أخبر جدنا أنا أسرنا

و بعد الأسر يا جدّاً سبيناً^٣
تبدأ مرثيتها مخاطبة مدينة
النبي صلى الله عليه وآله، و تبين مدى حزنها و ما
عانت هي و الأسرة من الظلم ثم، تندب
الفاجعة بعاطفة حزينة، و تشكو عما جرى
لهم من القتل و الأسر و السبي. تجلّت فيها
روح الندب أي الرثاء العاطفي.

ثم تنتقل إلى تصوير حالة الأسرى و
التي كانت هي من جملتهم و تبث شكواها:

و رهطك يا رسول الله أضحوا
عرايا بالطوف مسليّنا
و قد ذبحوا الحسين و لم يراعوا

جنابك يا رسول الله فينا
فلو نظرت عيونك للأسارى
على أفتاب الجبال محمليّنا

رسول الله بعد الصون صارت
عيون الناس ناظرة إلينا
و كنت تحوطنا حتى تولّت

عيونك ثارت الأعدا علينا

ترسم أم كلثوم منظراً دقيقاً سيطر
عليه الحزن و الفزع. و مخاطبتها
النبي صلى الله عليه وآله تظهر أحساسها الصادق و
احتجاجها القوي لما تذكر حالة الأسارى
و انتقاهم من بلد إلى بلد.

أفاطم لو نظرت إلى الحيارى
و لو أبصرت زين العابدينا

أفاطم لو رأيتنا سهارى
و من سهر الليالي قد عمينا
أفاطم ما لقيتي من عداكي
و لا قيراط ممّا قد لقينا
فلو دامت حياتك لن تزالي
إلى يوم القيامة تندينا
تستمر أخت الحسين في بثّ شكواها،
و تتجه نحو أمها فاطمة الزهراء و تقصّ
عليها قصتها المؤسفة، و تبين عظمة الرزية
حين تقايس مصائبهم بمصيبة فاطمة، و أنّها
لو كانت تشاهد محنتهم لكانت تندب إلى
يوم القيامة. تكرر كلمة فاطمة و سرد
العبارات بأسلوب شرطي، علاوة على
الوزن القصير يضفيان للأبيات ايقاعاً
جميلاً.

مدينة جدنا لا تقبلينا

و بالحسرات و الأحزان جننا
خرجنا منك بالأهلين جمعا
رجعنا لا رجال و لا بنينا

و كنا في الخروج بجمع شمل
رجعنا حاسرين مسليّنا
و كنا في أمان الله جهراً

رجعنا بالقطيعة خائفينا
و مولانا الحسين لنا أنيس
رجعنا و الحسين به رهينا...

(١) البداية و النهاية / ابن كثير، دار الفكر، بيروت،
ج ٣، ص ٢٢٣. فى تهذيب التاريخ الكبير / ابن
عساکر، ج ٥، ص ٨٥. الأبيات لخالد بن غفران
(٢) بحار الأنوار / المجلسي، مؤسسة الصفاء
بيروت، ج ٤٥، ص ١٢٧ و في الإيفاد / الشاه
عبدالعظيم، ط بيروت، ص ١٦٥. نسبت إلى
علي بن الحسين عليه السلام

(٣) المنتخب / الطريحي، ص ٣٥٧

هكذا تصوّر خروجهم من المدينة مع الحسين عليه السلام نحو كربلاء، و رجوعهم إليها مرة ثانية بعد المأساة، و قد قتل الحسين والاولاد و البنون، و بقيت النساء نائحات قتلانهن، و هنّ نبات طه و بس و زينب أخرجوها من جناها و فاطمه و اله تبدي الأيتنا سكينه تشتكي من حرّ وجد تنادي العرش ربّ العالمينا و زين العابدين بقيد ذل و راموا قتله أهل الخوونا فبعدهم على الدنيا تراب فكأس الوت فيها قد سقينا و هذي قصّتي مع شرح حالي الا ياسامعون ابكوا علينا^١

و في النهاية تذكر أسماء و اولاد الحسين و أهله الذين ظلوا أسارى بيد بني أمية و تصف حالتهم و احداً و احداً. زينب أخت الحسين و فاطمة و سكينه بنتاه و زين العابدين ابنه. تختم قصيدتها بكل أسف و حزن تثير النفوس. و اذا صحّت نسبة كلّ هذه الايات، و التي لم نذكر بعضها مخافة الإطالة، فتعتبر من أروع ما نظمت في الحسين عليه السلام.

و فيها تصوير كامل عن مصائب أهل البيت عليهم السلام و حادثة الطف. يعكس لنا كل ما حدث لهم بشكل واضح. في قالب أبيات قصيرة الوزن يتردد فيها الابقاع الخاص، و لغة التخاطب و بث الشكوى. و جعلت بهذا امام القارئ منظرًا حزينا تدمى به القلوب و تذرف به الدموع غزارة.

و هذه أبيات سيف بن عمير^٢ تتضمن معاناة أسرة الحسين عليه السلام من الأسر و

السبي و العطش، يؤكد الشاعر فيها إلى القرابة الموجودة بينهم و الرسول صلى الله عليه وآله، و كذلك شماتة يزيد و عماله بنات الحسين عليه السلام.

و من العجائب بعد قتل المجتبي بدع و أحداث لنسل الأظهر نسل النبي المصطفى و حرمة نسبه كاتسبى بنات الأصغر...

و يسرون على المطايا كالإمّا

بين الملا و بكل وادٍ مقفر

شعنا مثاكيل عطاشى جوعا

أسرى كأنهم لأسرة قيصر

و يصغرون و يشتمون عداوة

بأوامر من كافر متجبر

لم أنس زينب و هي حسرى حائر

في نسوة متبرجات حتر

تمشي الى نحو الحسين و تشتكي

مانالها من ظلم ذاك المعشر...

يا ابن النبي المصطفى خير الورى

و ابن البتولة و الامام الاظهر

قد جلّ رزؤك يا أخي و جلّ ما

ألقاه من نكل و طول تضرر

و من ميزات هذه القصيدة أن الشاعر

يقوم فيها بتصوير مصائب كل من اهل

الحسين عليهم السلام متكلماً عن لسانهم و احداً

بعد آخر فيبدأ من زينب الكبرى و يصف

بكاءها و تلهفها على فقدان أخيها، ثم

يتوجّه نحو سكينه و رقيّة و يشرح لنا

بتمها مشيراً إلى لوعة ام كلثوم اخت

الحسين عليه السلام:

أخي و اصلني العزا و هجرتني

و لقد عهدتك و اصلاً لم تهجر

أخي بعد البعد منك تقربت

مني المصائب في الزمان الأعسر

و لأم كلثوم مجدّ جديدها

ثم عقيب دموعها لم يكرر

لم أنسها و سكينه و رقيّة

بيكينه بتحصّر و تزفر

يدعون أهمهم البتولة فاطما

دعوى الحزين الواله المتحير

يا أمّا هذا الحسين مجدّلاً

ملقى عفيرا مثل بدر مزهر

يا أمّا نوحى عليه و عوّلى

في قبرك المستور بين

الاقبر...^٣

و في البيت الأخير يشير الشاعر إلى

مصائب فاطمة الزهراء عليها السلام و قبرها

المستور و الذي يدلّ على ظلامتها.

الثناء في هذه القصيدة عاطفي، اي

ندب حزين يهزّ الضمائر.

لما أتى فرس الحسين عليه السلام من ساحة

القتال نحو الخيمة بكت زينب الكبرى و

قالت:

مصيبتى فوق أن أرتي بأشعاري

وان يحيط بها و همي و أفكاري

جاء الجواد فلا اهلاً بمقدمه

الأيوجه حسين مدرك الثأر

يا نفس صبراً على الدنيا و محنتها

هذا الحسين قتيلاً بالثرى عاري^٤

(١) نفس المرجع: ص ٥١

(٢) هو سيف بن عميرة النخعي. شاعر. عربي كوفي، ثقة روى عن أبى عبدالله و أبى الحسين، عدّه الطوسي في اصحاب الامام الصادق و الامام الكاظم عليهم السلام انظرا الرجال / النجاشي، تحقيق محمد جواد النائيني، دارالأضواء ط ١، ١٤٠٨ هـ، ص ٢٢٥

(٣) المنتخب / الطريحي، ص ٢٤٤

(٤) ينابيع المودة / القندوزي، ص ٣٥٠

و هناك نماذج كثيرة تحكي عن مصائب الاسرى و أحداث حادثة الطف، اقتصرنا بما ذكرت.

معاناة الموالين لأهل البيت (عليه السلام)

و من المضامين التي تلاحظ في الرثاء الحسيني خلال العصر الأموي، هو معاناة محبي آل البيت (عليه السلام)، و صورها الشعراء بأسلوب المقارنة مع أنصار و موالين لزعماء الأديان الماضية:

قال ابوحنيفة النعمان بن ثابت^١ في هذا المجال:

حبّ اليهود لآل موسى ظاهر
و لاؤهم لبني أخيه باد
و امامهم من نسل هارون الاولي
بهم اقتدوا و لكل قوم هاد
وكذا النصرى يكرمون محبة
مسيحهم نحرأ من الاعواد
فتى يوالى آل أحمد مسلم
قتلوه أو و سموه بالإجماد...
لم يحفظوا حق النبي محمد

في اله و الله بالمرصاد^٢
تجلت في أشعار رثاء الحسين (عليه السلام)
خلال هذا العصر معاناة أهل البيت (عليه السلام) و آل محمد (عليه السلام) من الظلم و المحن واضحة. و استطاع الشعراء من تصوير الاضطهاد الذي عاناه الموالون لهم من شيعة علي (عليه السلام).

و هذا السيد الحميري يذكر احوالهم بعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله) و يصور ظلم بني أمية في حقهم لما غصبوا الحكم، و يشير إلى عدم استحقاقهم فيه بازالة وصية النبي (صلى الله عليه وآله) إلى الأبعد:

توفى النبي (صلى الله عليه وآله)

فلما تغيب في الملحد

أزالوا الوصية عن أقربيه

الى الأبعد الأبعد الأبعد
و كادوا مواليه من بعده
فيا عين جودي و لا تجمدي
و أولاد بنت رسول الله
يضامون فيها و لم تكمد
فهم بين قتلى و مستضعف

و منصرف في الثرى مقصد^٣
و احتج الشاعر في امر خلافة المسلمين في رثاء سياسي ملتزم بآل النبي (صلى الله عليه وآله) يعبر عن رؤيته الدينية أيضاً.

إنّ بني أمية لم يأثرو جهداً في ايذاء أهل البيت (عليه السلام) و أصحابهم و مواليهم، و مقاومة من ينوح على شهداء الطف و تعذيبه بأشد العقوبات بالتالي. و هذا البيت لأحد الشعراء على عهد الأمويين من قصيدة رثائية يدل على ما كان يلاقه الموالون لآل علي و أولاده (عليه السلام):

تجاوبت الدنيا عليك مآتما
نواعيك فيها للقيامه تهتم
و كان عقاب هذا الشاعر، كما يقول المؤلف، التعذيب و الموت على يد حكام ال أبي سفيان.^٤

البكاء و الحسرة

إن معظم القصائد الرثائية في الحسين (عليه السلام) كانت تستهل بوصف الدمع الجاري و معاناة العين من ألم البكاء و الحسرة، أو دعوة العيون بتذرف الدموع و الجود و الاكثار فيها تعبيراً عن مشاعر الحزن و اللوعة.

و النماذج الرثائية التي وصلت إلينا ترجع اكثرها إلى المصايب بحادثة الطف و اقرباء الحسين (عليه السلام) و أسرته الكريمة.

و هذه ما نظمها زينب الكبرى عندما التفت، فرأت رأس أخيها فنظحت جبينها بمقدم الحمل حتى سال الدم من تحت قناعها، و أمأت إليه بحرقه و جعلت

تقول:

يا هلالاً لما استتم كما لا
غاله خسفه فأبدى غروباً
ماتوهمت يا شقيق فؤاوي
كان هذا مقدراً مكتوباً...^٥
و الأبيات التالية من قصيدة طويلة لجعفر بن عفان و التي يتجلى فيها الحزن و البكاء:

تبكي العيون لركن الدين حين وهي
و للرزايا العظيمة الجليلات
هل لامرأ عاذر في خزن أدمعه
بعد الحسين و سبي الفاطميات
أم هل لمكتئب حرّان أفقده
لذاذة العيش تكرر الفجيعات
قضت على آل خير الخلق كلهم
و هم غياث البرايا في الملمات^٦
توجد نماذج كثيرة في هذا المجال نكتفي بهذه الابيات التي تتضمن معنى البكاء و اللوعة مع تصوير مقتل الحسين (عليه السلام):
أبكي قتيلاً بكر بلاء
مضرج الجسم بالدماء
أبكي قتيل الطغاة ظلماً

(١) ابوحنيفة النعمان بن ثابت بن زوطي مولى تيم الله بن نعلبة الكوفي، ولد سنة ٨٥ هـ و توفي سنة ١٥٥ هـ

(٢) زفرات الثقلين / المحمودي، ص ٢٢٣. نفلًا عن شرح الميبدى، على ديوان علي (عليه السلام)، ص ٩١

(٣) ديوان السيد الحميري، ص ٢٥٨

(٤) تاريخ النياحة على الحسين (عليه السلام) / صالح الشهرستاني، مطبعة اتحاد طهران، ص ١٣٢

(٥) بحار الانوار / المجلسي، ج ٤٥، ص ١١٤ و المنتخب / الطريحي، ص ٢٧٨

(٦) مقتل الحسين / الخوارزمي، ج ٢، ص ١٤٥

بإسلوب مألوف عند شعراء العصور
الماضية مثل الدعاء للميت والاستسقاء
الإنا نشعر، ازدهاراً و تطوراً بارزاً في
سياق الابيات بشكل عام.

الشهداء و الطف.

و من مضامين الرثاء الحسيني خلال
العصر الأموي، ذكر الطف و كربلاء و
زيارة قبور الشهداء و كذلك ذكر قتلة
الحسين عليه السلام.

حيث نجد بأن ذكر كربلاء و الطف
يقترن بالكرب و البلاء، و يردّد الشعراء
هذا المعنى كثيراً. و يبدو أن كربلاء في
الشعر الرثائي القديم كانت موضوعاً للذم
و الدعاء عليها لأنها شهدت مصارع آل
البيت عليهم السلام، فكثرت ذكراها، فبقى رمزاً
لاستشهاد الحسين عليه السلام و سجلاً لتلك
المأساة العظيمة

(١) تذكرة الخواص / ابن الجوزي، ص ٣٧٩ نقلاً
عن الشعبي. فالآبيات سمعها أهل الكوفة في
الليل.

(٢) ابوالرميح عمير بن مالك بن حنظلة
الخزاعي، تابعي من شعراء أهل البيت توفي
حوالي سنة ١٥٥ هـ انظر الذريعة / ط ٢، ج ٢٠، ص
٢٩٤ و أعيان الشيعة: ج ١، ١٦٨

(٣) نفس المهموم / الشيخ عباس القمي، ص ٣٧٨
(٤) الكامل في اللغة و الأدب / الميرد، ج ١،
ص ٢٢٣، اختلف الرواة في نسبة هذه الأبيات،
نسبها البعض إلى أبي الرميح الخزاعي - و جاءت
الأبيات مع خمسة أبيات أخرى في ديوان أبي
دهل الجمعي برواية اشيباني، ص ٦٥

(٥) الطبقات الكبرى / ابن سعد، ج ٨، ص ٧٢،
في اختلاف الروايات انظر: زفرات الثقلين /
المحمودي، ص ١٥٨

ألم تر أن الشمس أضحت مريضة
لفقد حسين و البلاد اقشعرت
و كانوا رجاء ثم صاروا رزية
لقد عظمت تلك الرزايا و جلّت...^٥
إن العاطفة فيها تنفجر حسرة و المأ و حزناً
لمقتل حفيد رسول الله صلى الله عليه وآله الذي
استشهد في سبيل غاية رقيقة نتيجة لغدر
فئة من أهل العراق الذين دعوه للحضور
ثم تخلوا عنه للجريمة الكبرى التي ارتكبتها
قاتلوه و فتكوا به و أهله نساء و أطفالاً في
العراء.

و الشاعر بتصويره مرض الشمس و
اكتئابها لمقتل المرقى، زاد في وقع الأبيات و
تأثيرها في النفوس.

الشهداء في رثاء الحسين عليه السلام

قلماً نجد قصيدة رثائية قد نظمت في
شهداء كربلاء أو في بعض منهم و لم يذكر
اسم الحسين عليه السلام فيها و الشهداء هم
الذين لبّوا نداء امامهم و ناصروه يوم
عاشورا. فأذن قد يأتي رثاء الامام
الحسين عليه السلام أثناء رثاء الشهداء. و
الشهداء الذين صرعوا في الطف يكرّمون
عند الشعراء و الرائيين، فيشيدون أفعالهم
البطولية و تذكّر أفعالهم أحياناً في القصيدة
و قد يرثون بصورة عامة بصفاتهم أهل
قبيلة أو أسرة كريمة كبنّي هاشم أو بنّي
عقيل.

و النماذج الشعرية كثيرة جداً في هذا
المضمار نشير إلى أبيات منها:

سقى الله أرواح الذين تآزرروا
على نصره سقياً من الغيث دائماً
و قفت على أجدانهم و محالمهم

فكاد الحشى ينفض العين ساجمة

لعمري لقد كانوا مصاليت في الوغى
سراعاً إلى الهيجا حماة خضارمة...
نظم عبيدالله بن الحر الجعفي رثائه

بغير جرم سوى الوفاء
أبكي قتيلاً بكى عليه
من ساكن الارض و السماء...
كل الرزايا لها عزاء
و ما لذا الرزء من عزاء^١
و لأبي الرميح الخزاعي^٢ مرثية حزينة
يصف فيها العبرات المدرارة تجري
كالسحاب و عينه لم تصح بعد البكاء
أجالت على عيني سحائب عبدة
فلم تصح بعد الدمع حتى ارمعلت
تبكي على آل النبي محمد
و ما اكثرت بالدمع لابل أقلت
اولئك قوم لم يشيموا سيوفهم
و لم تكثرت القتلى بها حين سلّت^٣

بكاء الكائنات

عظمة الخطب تلمح على الشاعر لأن
يشارك الكون و الطبيعة في حزنه و أسفه
على المرقى. و هذا مما يلاحظ واضحاً عند
شعراء الرثاء الحسيني، حيث اتخذوا من
بكاء الارض و السماء في قتيل كربلاء صوراً
رائعة تهرّ كل قلب قاس:

بكت الأرض و السماء عليه .

بدموع غزيرة و دماء

بيكيان المقتول في كربلاء

بين غوغا أمة ادعياء

منع الماء و هو منه قريب

عين أبكي المنوع شرب الماء^٤

صوّرت سكينه بنت الحسين عليها السلام
في الأشعار السابقة عطش أبيها عند
الاستشهاد و هو على شاطئ الفرات. مع
دعوتها العين و الكائنات البكاء عليه.

قال سليمان بن قتة في رثائه
الحسين عليه السلام:

مررت على أبيات آل محمد

فلم أوهأ أمثالها يوم خلّت

تمثيلاً للحياة الاجتماعية لما تضمن من معان جديدة بتأثير الوقائع السياسية والاجتماعية آنذاك.

مثل الرثاء الحسيني هجاء بني أمية، و ذم اهل الكوفة، وانعكاس جرائم الامويين.

اتخذ الشعراء مرائهم وسيلة دعائية في وجه خصومهم و دافعوا فيها عن آل محمد ﷺ و بني هاشم.

صوّر الشعر الرثائي في الحسين ﷺ جميع الأحداث التي جرت في الطف مع شمول كثير من مصائب اهل البيت ﷺ قبل هذه المناسبة.

تجلّت في الرثاء الحسيني روح الندم و التوبة و التعريض على القيام بأخذ ثأر الشهداء و التأسف و الحسرة لعدم مناصرته...

معظم مراثي هذا العصر في الحسين ﷺ نذب لا يخلو من تأبين بشكل عام و قدياً في فيها العزاء.

و يظهر بين المعجبات هو مها تبيت النشاوى من أمية نوماً

و بالطف قتلى ما ينام حميمها و تضحى كرام من ذؤابة هاشم

يحكم فيها كيف شاء لثيمها و ما أفسد الاسلام إلا عصابة

تأمر نوكاها و دام نعيمها و صارت قناة الدين في كف ظالم

إذا مال منها جانب لا يقيمها رمتها لأهل الطف منها عصابة

حداها إلى هدم المكارم لومها على أن فيها مفخراً لو سمت به

الى الشمس لم تحجب سناها غيومها اولئك آل الله آل محمد

كرام تحدث ما حداها كويمها في القصيدة وصف عام لحياة الأمويين

و ما فيها من الترف و الظلم و عدم مبالاتهم بمبادئ الاسلام، و من جانب آخر وصف الشاعر حالة بني هاشم و معاناتهم من الاضطهاد.

يقارن الشاعر بين الإسرتين و حياتهما بأسلوب فني، مستمداً من الصور البلاغية و الصناعات اللفظية، مثل التضاد و المقابلة و الحوار ... حيث أتى في كل شطر بوصف عن كل من الأسرتين و زعمائهما.

انتضح مما سبق أن الرثاء الحسيني في العصر الأموي، امتاز بانبعائه عن عاطفة صادقة، و أن الشعراء قاموا بتعبير مشاعرهم عن طريق وصف اللوعة و البكاء و استعراض محاسن المرثي علاوة على ذكر مسألة القرابة بين المرثي و النبي ﷺ.

و يمكن اعتبار هذا اللون من الرثاء

و احسيناً فلانست حسياً أقصدته اسنة الأعداء

غادروه بكر بلاء صريعاً

لاسقى الله جانبي كربلاء^١

يقول السيد الحميري ذاكراً كربلاء عند رثاء الحسين ﷺ

كربلا يا دار كرب و بلا

و بها سبط النبي قد قتلاً

قال مصعب بن الزبير بن العوام راثياً شهداء الطف:

و إن الاولى بالطف من آل هاشم تأسوا فسنوا الكرام التأسيا

يؤبّن شهداء الطف من بني هاشم الذين تأسوا آل محمد ﷺ. تدل كلمة

الطف هنا أن القصد من الاولى، هم الشهداء الذين صرعوا مع الحسين ﷺ. كما و نشاهد في العصور التالية بعد العصر الأموي استعمال هذه الكلمة و كربلاء رمزاً للحسين أو شهداء الطف.

المقارنة بين الاسرتين

ذكر الشعراء الصراع الذي دار بين الهاشميين و بني أمية في مراثي الحسين و الشهداء، حيث بدأوا بمقارنة الأسرتين و تعداد مفاخر بني هاشم على الأمويين، و سجلوا في جملة ما سجلوا من الأحداث و الوقائع، الخلاف الموجود بينهما و جرائم بني أمية في أبناء هاشم.

يقول ابو دهب الجمحي:^٢

اليك أخوا الصّبّ الشجي صباة

تذيب الصخور الجامدات هو مها

عجبت و ايام الزمان عجائب

(١) تذكرة الخواص / ابن الجوزي، ص ٢٦٥ و في الاغانى، ج ١٦، ص ٢٦٩، منسوبة إلى عاتكة زوجة الحسين ﷺ

(٢) ديوان السيد الحميري، ص ٣٢٨

(٣) هو وهب بن ربيعة من بني جمع، كان شاعراً محسناً ذكره ابن شهر آشوب في شعراء اهل البيت المتقين، عاصر معاوية و بقي الى زمن يزيد قبل إنه خرج مع التوابين هجاء بني أمية و رثاه في الحسين عند قبره معروف انظر: الشعر و الشعراء / ابن قتيبة، ص ٤١٣، معالم العلماء / ابن شهر آشوب، ص ٦٥٥ و اعيان الشيعة، ج ١، ص ١٦٨